لقاء

سمعان خوّام بين لوحاته في مرسمه ببيروت

في حديثه عن تجربته الفنّية سواء في الرسم أو في الشعر، يقول التشكيلي السوري اللبناني لـ«العربي الجديد»: «لقد حمَّلتُ اللوحة كلّ ما أُريد قوله... في الشعر أجد نفسي قاسياً، أمّا في اللوحة فأقلّ حدَّة وقسوة»

سمعان خوّام الذهاب إلى المكان الأخفّ والأبسط

اللوحة والقصيدة على هامش الإبادة

محمود وهبة

لم يتخلَّ الفنّان التشكيلي سمعان خـوّام على مدى عشرين عاماً عن الرّجل العصفور. في خضمّ تحوّلات اللوحة، التي باتت تُعرف كلوحة أصيلة تشير إلى صاحبها، وصولاً إلى أعماله الأخيرة التي ترتدي ثوب «الفنّ الساذج»، بقيَ الفنّان مُحافظاً على وعيه بالمادّة التي يريد الوصول إليها. لوحات يُحمّلها تقلُّباته وهمومه الحياتيّة التي تُطالعنا من معرض إلى آخر، حيث نرى الألوان التي لم نعتَد وجودها في تفاصيل التجربة السّابقة. لكنَّ اللون يبقى لدى خوّام مجرّد وسيلة. فالأساس في لوحته هو الهمّ الذي تحمله. لو أردنا أن نُفتّش عن عناصر لوحة الفنّان السوري اللبناني، أو حاولنا تشكيل حقل معجمي بياني لهذه العناصر لطالعتنا هذه الكلمات: القناع، الوجه، السُّكون، الحِيَل والالتفافات السوداء، وأشياء أُخرى كلّها تجعل من لوحة خوّام لوحة معاصرة أشبه ببصمة أو وشم مَدارُه الشخوص والألوان ومحاولات الفنّان الواعية لتبسيط اللوحة. لا ندري إذا كانت كلمة «تبسيط» صحيحة. كأنّ خوّام يردُّنا بهذه الأعمال الأخيرة التي نشاهدها إلى الأشكال الأولى والألوان الخامّ التي تصنع لوحته وتحوّل العنف إلى عفويّة، والقساوة والاحتجاج إلى مادّة شخصيّة أكثر أصالة. تلتقي «العربي الجديد» بخوّام وتُحادثه في محاولة لتفكيك الأعمال وربطها بالواقع. كما نبتعد معه لنعود إلى الطفولة في سوريّة ومحاولة الانتحار الفاشلة هرباً من التجنيد في جيش النظام، وعن محاولاته الفنّية التي جمع من خلالها التبرّعات لصناديق الدعم الذاهبة إلى غزة، لإسكات ضميره وعجزه أمام مجازر التدمير والإبادة.

أطفال غزة

يبدأ خوّام حديثه إلى «العربي الجديد» بعين القلب، متناولاً الراهن وما يجري في غزة من إبادة وتطهير عِرقي: «علمتُ بما جرى في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وفرحتُ بالأمر، ثمّ ما لبثت الفرحة أن انتهت أمام مشاهد الدمار والهمجيّة الصهيونيّة، أمام حجم ردّة الفعل، والخراب الحاصل في غزة. شيءٌ من الشّلل أصابني أمام كلّ ما نراه، فكّرتُ أن أضرب رأسي بالحائط وقرّرتُ أنّه لا بُدَّ لي مِن فعل شيء. حاولتُ أن أتخلّص من شعوري بالذّنب والتّقصير والعجز عبر رسم لوحات ذات صلة بما يحدث، رغم أنني لا أعرف كيف أفعل ذلك، أضعفُ الإيمان أن نرسم، فقط لكي نغسل أيدينا ولكي ننام شبه مرتاحين من هول ما يجري». ويضيف: «بعد مرور شهر على المجزرة قرّرتُ أن أُقيم حملة لجمع الأموال وإرسالها إلى أهلنا هناك. عملتُ على أشياء خاصة مرتبطة نوعاً ما بالعدوان على غزة لكن المشاهدين والناس لمْ يحبُّوها وفضّلوا العودة إلى أعمالي السابقة واشتروا منها وهذا ما أُريده بالتحديد جَمْع الأموال وإرسالها إلى أهلنا في غزة».

حديث البدايات

عن بداياته وتشكّل وعيه الفنّي يقول خوّام: «الفنّ كرسم، الفنّ التشكيلي كنحت، لم يكن موجوداً عندي في صغري أكثر ممّا كانت القراءة، القراءة على أنواعها. وبصراحة كانت اهتماماتي محصورة في مجال العلوم أكثر من أي مجال آخر. كنتُ أقرأ طبعاً الروايات والفلسفة منذ بدايات تشكُّل وعيي وصولاً إلى الفترة التي تلَت الحادث المُفتعَل، ليس واضحاً بالنسبة لي أين بدأت القصة بالتحديد». يُكمل صاحب «دليل المهرّج» حديثه: «كان عمري آنذاك ثمانية عشر عاماً، حصل ذلك قبل أسبوع من موعد عودتي إلى سورية لتأدية الخدمة الإجباريّة، قرّرت حينها أنه يجب أن أمشي في حقل ألغام، لا حلّ أمامي سوى الموت أو العطب الدائم الذي سيَقيني شرّ الخدمة الإلزاميَّة. وهذا بالضبط ما حدث. كان من المستحيل أن أعود إلى سورية. دخلتُ حقل ألغام في منطقة محاذية لبلدة بعبدات في المتن وخسرتُ قدمي منذ ذلك الحين، ولكنّني في المقابل تخلّصتُ من الخدمة الإلزاميّة والعودة». ويضيف خوّام: «بعد سنة من تلك الحادثة، وبعد خمس عمليات في القدَم قبل أن نرسو على الرِّجل الخشبية، وفي تلك الزيارة العائلية تفتّحت عيناي على اللون، كنّا بزيارة إلى بيت لا أذكر تفاصيله الآن. هناك ابنة في هذا المنزل تدرس التّصميم والغرافيك. أذكر جيداً أنَّ ما علق في رأسي منذ تلك اللحظة هي رائحة الألوان الزيتيّة. في تلك اللحظة وُلِدَت الفكرة. تطلَّب الأمر بعد ذلك سنة من الأبحاث ومحاولة معرفة التفاصيل والأشياء في هذا العالَم. بدأتُ الرَّسم ولم أكُن أعرف ماذا أفعل. استغرق الأمر أربع إلى خمس سنوات من التجارب وحدي، لا أنفي أنني في تلك المرحلة قدّمتُ عروضاً بسيطة في فرنسا وألمانيا تعرّفتُ من خلالها إلى الفنّ أكثر». وبالانتقال إلى تجربته الشعريّة، يقول الفنّان السوري اللبناني لـ«العربي الجديد»: «خلال هذه المرحلة لم تتوقّف رحلتي مع الكتابة. أنا أكتب بشكل يومي، الكتابة شيء طقوسي بالنسبة لي. كنتُ قد نشرتُ مجموعتي الأولى ‹مملكة الصراصير› ولم أنقطع أبداً عن الشعر. صحيح أنني في أزمة دائمة مع الكتابة، وفي رحلة سؤال دائم عن القيمة والأثر ولكني بقيتُ أكتب». ويكمل خوّام حديثه عن الشعر: «الرسم أعطاني حرّية أكبر، أعطاني الهامش بأن أختفي وراء اللوحة، وأن أضع قصَّة واحدة وأشتغل عليها. من هنا خرج ‹الرجل العصفور›، الكائن الذي حمَّلتُه كلّ ما أريده. لقد حمَّلت اللوحة كلّ ما أريد قوله، من دون أن أقول شيئاً. في الشعر أجد نفسي قاسياً، بينما في اللوحة أنا أقلّ حدَّة وقسوة، ربما في اللوحة الأشياء تأتي مهذّبة أكثر. وهذا الذي صنع التوازن عندي. أنا في مرحلة الرسم أفكّك لوحتي أكثر لأنني أريد منها الرمزية ولو شئتَ التّبسيط. في الرسم أعودُ ذلك الولد الذي يرسم، وأترك للكتابة الجانب العنيف منّي. طبعاً ليس بالضرورة أن أنشر ما أكتبه المهمّ عندي هو خلق لعبة التوازن. هناك حريّة أكثر في الرسم، لديَّ الكثير من الأدوات لأقول وأعبِّر والأهمّ لكي لا أكون مفضوحاً كما هو حالي في الشعر».

الرجل العصفور «إيغو» آخر ألجأ إليه حين أهربُ من نفسي

مغامرة جديدة

وفي معرض كلام الفنّان عن تجربته الجديدة التي بدأت تتبلور ملامحها، يقول: «ببساطة هذا الطائر هو أنا وحالاتي النفسية. اللوحة هي مرآتي، أشتغل على ما أحسُّه. في اللوحة هناك الحرب والثورات والميلانخوليا الشخصيّة وأشياء أُخرى عديدة. لمدّة طويلة كانت لوحتي حزينة وتخبر أخبارها بهدوء وانسحاب. اللحظة الفاصلة بالنسبة لي كانت هي لحظة الانفجار واغتيال لقمان سليم في شباط/ فبراير 2021. كنتُ حينها قد اشتغلتُ على لوحتين وبدأت التفكير باللوحة التي فيها لون. بعد ذلك غادرتُ إلى لندن، ارتحتُ قليلاً وبدأت المحاولات. عملتُ على تجربة طويلة ومحاولات كثيرة بدأت تظهر نتائجها الآن. هل لا تزال الأشياء ذاتها؟ مُمكن، ولكنّها ملونة. ما أريد قوله إن كلامك عن الطائر صحيح ولكنه طائر في أساسه وهَمّه محاولة تبسيط الأشياء والابتعاد عن الزخرفة. كي لا أقع في فن الرسم. أريدُ أن أكون فناناً وليس رسّاماً وهذا الطائر هو جزء من هذه الرِّحلة. نعم الطائر لئيم، لقد حمَّلتهُ كل ما لم أعد قادراً على حَمله وإنجازه، ربّما لأنني تعبت. غدا هو كلّ شيء، صار العين التي تراقب وحارس المكان». ويضيف خوّام: «الرجل العصفور هو ‹إيغو› آخر، حين أهربُ من نفسي ألجأ إليه. كلّ ما أعرفه أُحمِّله إيّاه قديماً كان أم جديداً. وبرأيي فإنّ الموضوعات والأشياء الجديدة يجب عليها أن تحترم مكانة الأشياء القديمة وتجد لنفسها محلاً، لديَّ ألفُ فكرةٍ في رأسي ليست جاهزة الآن، يمكن أن توضَّب، موضوعات اللوحة القديمة لم تنته، ولكن أحاول أن أتخفَّف منها، أفتح المجال للقديم والجديد كي يتناسقا معاً». كذلك يعرِّج خوّام في حديثه مع «العربي الجديد» على المستقبل قائلاً: «بعد كلّ تجاربي لا أستطيع أن أكون إلّا عدمياً، المستقبل لا أستطيع أن أراه إلّا بعين الحاضر، الاشتغال في الحاضر. أعيش في هذه اللحظة، الأمر نفسه ينطبق على الماضي الذي لا يُمكننا أن نغيّر فيه شيئاً، ولكنّه يُذكّرني أيضاً بما جرى وبَنيتُهُ سابقاً. أضحك على نفسي لو قلتُ لك إنَّ هناك مستقبلاً خارج اللوحة، أعمل في كلّ يوم باعتباره اليوم الأخير، ليست لدي قدرة على شيء سوى العمل والطاقة والقليل من الموسيقى المترافقة مع القراءة، هذا ما أستطيع قوله».

مسألة أُخرى يقدّمها صاحب «مملكة الصراصير» حول عملية الشغل والتواطؤ بين الفنان والعمل والمُشاهد مفصِّلاً: «الذي سيُشاهد سيُشاهد في كلّ الأحوال، وفي أيّ شاكلة كان عليها العمل. المُشاهِد ليس موجوداً معي في لحظة تكوين اللوحة، أنا الذي أرى، من هُنا أكون أنا المُشاهِد الأول والأخير لعملي. طريقة مشاهدة اللوحة هي التي تقرّر، اللوحة تنبع من حجم مشاهدتي، كم أنا مراقب؟ هل تراقب القراءة؟ هل تراقب الناس؟ الشارع؟ هل تراقب الهواء والكائنات؟ اللوحة هي نتاج لهذه السلسلة من المُراقبات لأشياء منظَّمة وغير منظَّمة». ويُتابع: «أما المشاهد الذي تحدّثني عنه فيأتي دوره في اللحظة التي تخرج فيها اللوحة من عندي لتصبح له، يُحبّ أو لا يُحبّ، هذا محلّ نقاش بيني وبينه. نتناقش، ولكنّ اللوحة كعمل انتهت وبدأت رحلتها».

نهاية الخطابات وبداية التجريب

وعند حديثنا عن إمكانيّة أن يكون هذا الزمن صالحاً للخطاب الفنّي، يُشير خوّام قائلاً: «الخطاب المتعلّق بالفنّ له علاقة دائماً بصاحب الخطاب. فحين يكون لديَّ خطاب تكون لديّ أيضاً نيّة كامنة خلف هذا الخطاب. هذه النّيّة قد تكون قضية أُدافع عنها، قد تكون همّاً شخصياً، قد تكون فنّاً من أجل الفنّ، أو ربما هناك أحد في الخلف يُحمِّلك خطاباً لتقوم بإيصاله، مهما كان الخطاب. في مرحلة من المراحل كان صوتي مرتفعاً ولم تكن لديّ حدود، ولم أُساوم. لكن بعد خسارتي لكلّ شيء خفَّفتُ من هذا الهمّ، والمصادفة أنني ارتحتُ شخصياً، وكأنَّ حملاً ثقيلاً نزلَ عن ظهري».

النص الكامل على الموقع الالكتروني

معرض

أضواء متقاطعة فوتوغرافيا التراث الجزائري

صورٌ لا تخلو من تأثير الفرشاة

تتنوع أعمال المعرض، الذي يستمر حتى الثامن من الشهر المقبل، في العاصمة الجزائرية، بين العمارة الإسلامية وأشكالها إبّان الاستعمار

مصطفى خيال (من المعرض)

الجزائر ـ **العربي الجديد**

يُخصّص رواق «هالة»، في العاصمة الجزائرية، معرضه الفني الثالث «أضواء متقاطعة»؛ الذي افتتح في العشرين من تموز/يوليو الجاري ويستمر حتى الثامن من آب/أغسطس المقبل، لفن التصوير الفوتوغرافي وتوثيقه لمناسبات ومشاهد متنوعة من الثقافة الجزائريّة. يقدّم المعرض نحو ستين عملاً فوتوغرافياً لتسعة مصورين جزائريّين محترفين بموضوعاتٍ متنوعة وأحجام متوسطة وكبيرة تجمع بين الأبيض والأسود والألوان. تتنوع الأعمال بين العمارة الإسلامية وأشكال العمارة إبان الاستعمار، والتقاليد التراثيّة. المعرض الذي اختار عنوانه المصوّر عبد الوهاب دردر، جمع بين تقنياتٍ مختلفةٍ للتصوير الفوتوغرافي، تتقاطع من حيث الضوء والظلّ والزوايا التي يشتغلُ عليها كلّ مصوِّر على حدة. تبرز هذه التقنيات من خلال موضوعات التصوير، كما هو الحال مع المصوّر مناري أكرم، الذي تختصُّ مشاركته بتوثيق الفروسية التي تشهدها مناطق عدّة من الجزائر، حيث يقول لـ«العربي الجديد» إنَّه يبحث في التقاطاته عن الرساليّة في التصوير والجانب الفلسفيّ للضوء الساقط، إذ إنَّ صورته تتخلّى عن الألوان في مشهدٍ دراميّ، لتفتح فضاءً آخر حول زمنيّة اللقطة وأجوائها والحدث الذي توثّقه.

تبرز في المعرض أيضاً صورٌ كأنها لوحاتٌ زيتيّة لا تخلو من تأثير الفرشاة وحدود الخربشات اللونيّة؛ وهو ما يجعل المشاهد أمام سؤال، هل هذه صورةٌ أم لوحة؟ تحديداً على هذا السؤال يقول المصوّر مصطفى خيال لـ«العربي الجديد»: «حكايتي مع فنّ التصوير تعود إلى عام 1982، حيث كنتُ أمارس التصوير في دور الثقافة في مدينتي البليدة. خبرتي في التصوير أكسبتني طرقاً وأساليبَ فنيّة مختلفة، صوري هذه أستخدم فيها أسلوباً خاصاً في التعديل، بحيث تقتربُ من الرسومات الزيتيّة، وهو ما يجعلها في منطقةٍ وسطٍ بين التصوير الخالص والرسم بالفرشاة، وهذا الأسلوب قائمٌ على المزج اللونيّ ليعطي الانطباع المختلف للمشاهد، مثل قصر كوردان وقرية مناع».

ستون عملاً فوتوغرافياً لتسعة مصوّرين جزائريّين محترفين

ثمة في المعرض أيضاً أعمالٌ تناولت تقاليد الجنوب الجزائري عبر سلسلة من الصور الفوتوغرافية بتقنية التصوير المجرّد، كما هي أعمال رشيد عيادي، في حين أنَّ مشروع خليل بن عمارة يُعنى بالتراث المعماري وترميمه من خلال لقطاتٍ لزوايا ومدارس قرآنية ومبانٍ أثرية، بينما توزّع لقطات سمير جمعة بين مواقع مختلفة لأحياء العاصمة، إلى جانب تركيزه على موضوعة «الفخار الجزائري». أما محمد الأمين الطيبي، اختار تسليط الضوء على مدينة وهران التي ينحدر منها، إذ يعالج التفاصيل المعمارية بناءً على التجريد ومفهوم الحجم. ويسلِّط عبد الوهاب دردر عدسته على الجانب المعماري لـ«جامعة الجزائر»، إلى جانب أعمال تعلّقت بالمرأة، بينما يركز بلقاسم مصباحي، من خلال أعماله العشرة، بما فيها تلك الستة التي جاءت بالأبيض والأسود، على أطفال مخيمات اللاجئين الصحراويين ببوجدور. إضافة إلى سلسلة صور سيد أحمد مناصرية، منظّم المعرض، والتي خصصها لنساء شمال وجنوب الجزائر.

إضاءة

أين لروحٍ تُغذيها الخوارزميات أن تشبع وترضى؟

إيروتيكا التكنولوجيا: المعري أو الروبوتات

حين يقنعنا المتنبي أو نيتشه أو المعري، فهم لا يفعلون ذلك بالمعلومات والبيانات والخوارزميات، بل بأسلوبهم الإبداعي الشعري أو المجازي

جعفر العلوني

تملك التكنولوجيا إيروتيكا خاصّة بها. فهي تسحرُ الكثيرين الذين لا يستطيعون العيش من دونها. مع ذلك تسبّب العمى. كما أنها تُخفي الواقع وراء شاشة، بالمعنى الحرفي والمجازي. إن التلوّث العقلي الذي يعيشه عالمُنا جدير بالدراسة والبحث؛ فمصاصو الدماء الجُدد يلبسون ثوباً مُغرياً ومضيئاً، ولهم وجوهٌ جميلةٌ ومشعّة. لكن مع ذلك هي وجوه ظاهرية تحجب الوميض الداخلي الموجود في كل إنسان. من دون هذا الضوء الداخلي الخاصّ بنا، نصبح مجرد ركام وحطام ورمل في صحراء التكنولوجية الواسعة، التي تمتد لتغزو الواحة الداخلية الخضراء الموجودة في كلٍ منا.

ماضياً، كانت أشكال الاستعمار تُقدّم إلى البشرية بقالب مليء بالطموح والإيمان الديني والرغبة في الثراء. حاضراً، صار الاستعمار أكثر دهاءً. فهو يغرينا بإثارة الشهوة والرغبة، ونحن نسلّم له روحنا مع كل نقرة. ولكن، من أين لروح تُغذيها الخوارزميات أن تشبع وترضى إلا بالانطفاء أو العمى، أو أن تعيش تحت رحمة من يغذيها! ثمّة محاولة متعمَّدة من قبل هذا الاستعمار الجديد في تدمير حرية الإنسان وكرامته. ويتم ذلك من خلال إضفاء الطابع الإنساني على الآلة، وتسريع الخطى من أجل إضفاء الطابع الآلي على البشر. في ظلّ هذا كلّه، تتعرّض الفردانية الخاصّة والفريدة بكل إنسان للتهديد والخطر، وهذا يقودنا، مع مرور الوقت وترسيخ هذا النموذج، إلى توحيد الفكر على أساس مشروع شمولي. استراتيجية هذا المشروع هي تحويل البشر إلى جماعات لا لزوم لها، لأنّها تحديداً تفكّر بالطريقة نفسها. وهذا ما يُلغي الفردية والتفكير الفردي. الأسلحة المستخدمة في هذه المعركة هي أسلحة الإعلام، الذي يهدف إلى جذب الأتباع أو المشترين. يُخبرنا هذا الإعلام أنَّ العالَم - بما في ذلك نحن - هو، جوهرياً، معلوماتٌ وبيانات. وتكرّر وسائل الإعلام الرسالة وتنشرها في جميع أنحاء الكوكب. وهذا ما تحاول شركات التكنولوجيا الكبرى، ومشرّعو الحقيقة وما وراءها، إخبارنا به. وتروّج هذه الإيروتيكا الجديدة من قبل عمالقة التكنولوجيا والحكومات والمؤسّسات العالمية، التي قرّرت تحويل الواقع إلى نظام معلومات «مثير» و«مغر». ولكن من أين جاء هذا كله؟

في عبارة غاليليو «الطبيعة تتحدّث بلغة الرياضيات»، وفي آراء ديكارت حول العلم وضرورة أن يكون رياضيات بالدرجة الأولى مقدمات لبداية العلم الحديث وعبادة البيانات والثورة العلمية التي ستهيمن عليها في ما بعد فيزياء نيوتن. «البيانات ليست شيئاً محايداً، بل شيء ‹مطبوخ›. وهي ليست شيئاً موجوداً في الخارج، بل تعتمد بالدرجة الأولى على النوايا». هذا ما يقوله الفيزيائي الدنماركي نيلز بور، مكتشف مبدأ المكاملة الفيزيائية: «الطبيعة يمكنها أن تتحدّث لغات عديدة، في الواقع، سوف تتحدّث اللغة التي نقترحها عليها». تبعاً لهذا المبدأ، لو سألنا الطبيعة رياضياً، فإنّها ستجيبنا بلغة الرياضيات، ولو سألناها بلغة الشعر، سترد شعرياً. ويمكن قول الشيء نفسه عن الكيمياء أو العلوم أو الفن. استطراداً، قد يكون مثيراً للاهتمام طرح السؤال التالي: بأي لغة يتحدّث العرب اليوم مع الطبيعة؟

يكمُن سِحر الطبيعة في أنّها متعدّدة الأوجه. إن ادّعاء وجود لغة خاصّة تقول لنا ماهيّة الطبيعة هي خرافة حديثة. الرياضيات هي الخيار الذي اتخذته الحضارة الغربية وبلغ ذروته الآن مع عبادة البيانات. ولكن للحصول على البيانات نحتاج إلى أداة قياس، وأداة القياس تحتاج إلى نظرية، ولا يمكن أن تكون هناك نظرية من دون خيال إبداعيٍّ عبقري. البيانات هي المُنتج النهائي لهذه العملية برمّتها، والتي لا تكون إلا بالخيال. ماضياً، كانت الفلسفة وسيلة النضال من أجل الحفاظ على ما هو طبيعي وحقيقي، وكان ذلك يتم استناداً إلى مهارات السرد أو الإقناع أو الجدل. حاضراً، صارت الروبوتات تقوم بهذه المهمة، فالمنطق نفسه حُوّل إلى أطنان من البيانات. صارت الكمية هي المهيمنة على النوعية. البيانات تدفن طبيعة الإبداع، لأنَّ طبيعتها تقوم على أنها لا تُدحض، أي إنها مطلقة، تماماً كمثل إله يحظر الاستثناءات ولا يسمح لأولئك الذين لا يتفقون معه بالتنفس. الأشخاص الأقل إبداعاً، أي السياسيين، يستعينون دائماً بخطاب البيانات والأرقام. فهي الخطوة الأولى نحو توحيد الفكر، وجعل الأفراد قابلين للاستهلاك، وللاستعباد، وفي نهاية المطاف تحويلهم إلى شيء من بين الأشياء. الشرر الداخلي الموجود في كل إنسان يطفئه الخوف، والجذر الأخضر تقتله الحسابات. لكنَّ الثقة والحب يشعلانه من جديد. وبينما يتحرّك العالَم ضمن ثنائية الأضداد: الخير والشر، البرد والحر، يبقى الحبّ الشيء الوحيد الذي له نقيض له.

لا يمكن أن نعتبر الكره نقيضاً للحبّ، لأننا نستدعي الكره حينما يتعرض شيء نحبّه للهجوم. الحبُّ، إذاً، يخلق الكره، إنّه من مخلوقاته. حين يُقنعنا المتنبي أو نيتشه أو المعري، فإنهم لا يفعلون ذلك بالمعلومات والبيانات والخوارزميات، بل بأسلوبهم الإبداعي الشعري أو المجازي، وبأفكارهم. إبداعهم يلهمنا ويحوّلنا للحظة، كقراء، إلى أفرادٍ مبدعين، لا إلى شيء من الأشياء. ولهذا السبب نحبّهم. الكتابة العالية، جوهرياً، هي تلك التي تخلق في القارئ شعور الإبداع، وهي التي تجعله، انطلاقاً من النص، يملك قدرة الخلق، والابتعاد والدحض والرفض أيضاً، قدرة الانفصال، ولو للحظة واحدة، من قبضة اللغة. هذه المسافة هي هواء الإبداع ونفَسه، هي روح الخليقة، حتى في أنظمة التقنية.

صارت طرق الاستعمار أكثر دهاءً: إثارة الشهوات والرغبات

تمثال المعرّي لـ عاصم الباشا في باريس

إطلالة

ثلّةٌ من الهمج

عاطف الشاعر

ثلّةٌ من الهمج جرى اختيارهم بعنايةٍ فائقة تصفقُ لمجرم حربٍ أدانته أكبر محاكم العالم. ثلّةٌ من الهمج تقف عند كلِّ فاصلة، وأمامَ كل كذبةٍ وتصفّقُ طويلاً. ثلّةٌ من الهمج تتبرّكُ بكلماتِ مجرمِ حربٍ فاقت جرائمه وأكاذيبه وقذارته حدود أي أخلاقٍ ممكنة، يصفقون له، وبحرارة. وجوهٌ بيض، ووجوهٌ سودٌ تصفّقُ، وتصفّق، وكأنه آخر صنائع الآلهة. ويستأنسُ قلبُ نتنياهو الطافح بالشر والظلام والقتل والدمار، يستأنسُ بالوحوش وهم يباركون همجيتهُ وعنجهيّته والشر المطلق الذي ينطقُ به. ما هذا العالم؟ ما هذه الثقافات؟ هل أقول: تحيا طالبان! يحيا آكلو لحوم البشر! لقد فاقت وحشية بعض الأنظمة الغربية وعلى رأسها أميركا كلّ الوحشيات. قلَّ نظير أن نرى التاريخ يُصنعُ ويُلوّثُ بهذه الطريقة التافهة والحقيرة، هذه الطريقة التي يُمجّد فيها القاتل والمجرم نتنياهو من الكونغرس الأميركي، مُتبوّئاً عرش الإمبراطورية الأميركية بأبشع تجلياتها. إنه لشيءٍ أن نقرأ عن المغول وهم يدمرون بغداد ويقتلون أبناءها، أو عن الصليبيّين وهم يذبحون أهل القدس وغيرها من البلاد، وأنَّ نرى مشهداً لصانعي أفتك الأسلحة في تاريخ العالم وهم يصفّقون لقاتل ويعلونَ من شأنه وهو يغدقُ عليهم بالأكاذيب بأخسِّ الطرق.

هناك اختلاف بين القراءة، ودرجة تصديق الأهوال وتأثيرها وتفاعلنا معها، وبين أن نرى القتل والدمار والعبث والإبادة ليل نهار بالبث الحي، الذي ما إن ننتبهُ إليه حتى يصبح خبراً آخر أمامَ المجزرة التي تلته والدمار الذي حلَّ بعده. لو كانت للشاشات أذنٌ أو أعينٌ لماتت عجزاً وقهراً على ما يحدثُ لأهل فلسطين وغزة وهم يُحشرون في مشاهد قياميّة في أماكنٍ صغيرة، ويُستهدفون بصواريخ ورصاص يزوّدهُ هؤلاء المشرِّعون الرعاع الذين يُصفّقون لنتنياهو، صانع المجازر وواجهتها الأقبح. تجلس النائبة رشيدة طليب وحيدة وترفعُ لافتة كُتبَ عليها «مجرم حرب» و«متهم بالإبادة»؛ تجلسُ محاطةً بكثيرٍ من العفن البشري الذي قلَّ نظيرهُ في التاريخ، عفنٌ مؤتمنٌ على سلامة البشريّة يصفّق لنتنياهو وهو يقسّم البشر إلى برابرة ومتحضّرين، ويضع نفسه وثلّة الهمج الذين يصفّقون له في مصاف المتحضرين. وكذلك الجنود الذين يستعرضون ليل نهار بفيديوهات وحشيّتهم، وهم يفجرون آبار الماء، ويلاحقون شاحنات الإغاثة، والأطفال، هؤلاء أيضاً في مصاف المتحضرين. لقد قرأنا وسمعنا هذه الديباجة من مستعمرين آخرين قبل هؤلاء الهمج، لكنَّ الأمر لا يقلّ دوّياً عندما يُرى، وبهذه الطريقة التي فاقت كل فجاجة.

بقي لنتنياهو أن يقول لهؤلاء الرعاع أنا ربّكم الأعلى، لتكتمل المهزلة ويشهدُ الخلقُ أن لا صوت يعلو على المجزرة! أي مجزرة ضدَّ اللغة والبلاغة، وأي حضيض هذا الذي يسمح بحالة مروعة مثل هذه. لم أعش في كنفِ عفنٍ بشري مطلقٍ كهذا لأعرفَ كيف يفكرُ هؤلاء الهمج. يقف العقل البشري مذهولاً مصعوقاً من دناءة هذا العالَم الذي يشعلُ الكبريت في جماجم أطفال غزّة ونسائها ورجالها مدةِ عشرة أشهرٍ متواصلة من الدمار والتخريب، مصعوقاً من بُعدِ العلوم عن الفلسفة والتاريخ وعلم الأخلاق. فخالق «تسلا»، إيلون ماسك يصفّقُ معهم وهو ضيفُ شرف على خطاب التهريج والكذب النتنياهي المطلق.

هذا من المفترض ليس إنساناً غبياً وجباناً وحقيراً لهذه الدرجة، فلقد قال أشياء تقترب من المعقولية والسلامة، على ثانويّتها، في بداية حرب الإبادة، مفادها أنَّ استهداف «إسرائيل» المدنيين في غزّة سيأتي بنتائج عكسية عليها، ثمَّ انقلب وأصبحَ ينطقُ بما تريدُ لها آلات الدعاية الصهيونية في أميركا والغرب من «معاداة السامية»، وإلى غيرها من معلبات الكذب والتضليل. تباً للعلوم الصلبة مثل الفيزياء والكمبيوتر وما يسمّى الذكاء الاصطناعي والهندسة العسكرية والكيمياء، إذا كان مصير البشرية سينتهي بيدِ هذه الثلّة من الهمج في الكونغرس الأميركي وإيلون ماسك وغيرهم، لينتهي الأمر بإبادة أهل غزّة ومحو فلسطين، لا سمح الله. تباً لها. ثلّةٌ من الهمج، ولكِ من لكِ يا غزّة الله.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

فعاليات

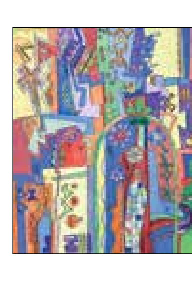
حتى الرابع من أغسطس/ آب المُقبل، يتواصل في «غاليري عائشة حداد» بالجزائر العاصمة، معرض **حوار الحضارات** للتشكيلي الجزائري **مجيد غمرود**. يتضمّن المعرض قرابة أربعين لوحة يغلب عليها الأسلوب التجريدي، ويُوظّف الفنّان فيها الرموز والأشكال والألوان من أجل تصوير التفاعُل بين الحضارات.

تحتضن «مكتبة خان الجنوب» في برلين، بعد غدٍ الجمعة، جلسة نقاشية لرواية **منازل الأمس** (2023) للروائي السوري **سومر شحادة** (1989/ الصورة). صدرت لشحادة ثلاث روايات أخرى: «حقول الذرة» (2016) التي حازت «جائزة الطيّب صالح»، و«الهجران» (2019) التي حازت «جائزة نجيب محفوظ»، و«الآن بدأت حياتي» (2024).

في «غاليري ضفاف» بالرباط، يتواصل حتى الخامس والعشرين من الشهر المُقبل، معرضٌ جماعي بعنوان **آثار على رمال الضفاف**. يضمّ المعرض، الذي انطلق الخميس الماضي، أعمالاً لفنّانين مغاربة مقيمين خارج بلدهم؛ من بينهم: **سعيد المساري**، و**حنان بوعناني**، و**سلمان الزموري**، و**عادل حوطة**، و**خالد البكاي** (اللوحة)، و**ثريا العلوي**.

تُقيم «مؤسّسة عبد الحميد شومان» في فرعها بجبل عمّان، عند الخامسة والنصف من مساء السبت المقبل، جلسة بعنوان **النجومية في السينما** مع الناقدة السينمائية المصرية **ناهد صلاح**. تتناول الجلسة مفهوم النجم عربياً وغربياً، وقديماً وحديثاً، وأثر النسق الزمني والاجتماعي في تشكيل النجم، وكيف تُساهم منصّات التواصل في صناعته.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

محمود أحمد البسيوني كاتب

نزوح آخر

الاستيقاظ باكرًا ملاذُنا الحقيقي من يومنا الشائك بالتّفاصيل الحياتيّة، السّاعة السّادسة صباحًا نهضتُ فزعًا، وغسلتُ وجهي، وارتديتُ حذائي المُهترئ من كثرة المشي وانطلقت...

طابورُ الخبز هذه المرّة لم يكنْ مُكتظًا بالأشخاص فقط، كان يَعجُّ بالأخبار المُتضادّة إثباتًا ونفيًا. تهديداتُ المُحتلّ في اجتياح رفح تزايدت، وكان أغلبُ النّاس يستبعدون ذلك، لم أكن مُهتمًا كثيرًا للأمر... فالنّزوحُ يبدأ من وقتِ خروجِك من بيتِك، لا يهمُّ بعدها كم مرة ستتكرّر، ولكنّ القلقَ الّذي ينتابُ الجميع سببُه مفاجآتُ ظروفِ كلّ نزوحٍ جديد.

بعد ساعَتين من الوقوفِ المُشبَع بالإشاعات، واشتعال الصّباح باصفرار الشّمس، انفجرَ انتظامُ الطّابور، وخرج عن ترتيبه حين قالَ أحدُهم: «إنّ المُحتلّ نشر خريطةً للإخلاء، وحدّد مناطقَ للاجتياح في رفح»... انقسمَ جمهورُ الطّابور إلى قسمين، قسمٌ على مدخل المخبز يسارعُ الوقتَ في التقاطِ ربطة خبزٍ قبل اشتعالِ فتيل التّوغل في رفح، وقسمٌ اتّجه نحوَ مناطق سكناهم تأهّبوا لحدثِ النّزوح.

كنتُ أُعاني ألمَ الأسنان منذُ فترةٍ طويلة، لم يكُن هناك وقتٌ أو إمكانيّات أو مكانٌ آمن، كان كلُّ شيء أهمَّ من ألمِ أسناني، والآن لن أُضيِّعَ فرصةَ الذّهاب إلى عيادةِ الأسنان، فقد اشتدَّ عليَّ الألم، وإن كان هناك نزوحٌ فسيطولُ أمرُ العلاج مرّةً أُخرى...

وصلتُ إلى العيادة وكانت السّاعةُ الثّامنة والنّصف، حجزتُ دورًا لي، وكان ترتيبُ دُخولي أربعة، كانَ موعدُ بدءِ استقبال الطّبيب للمرضى السّاعةَ العاشرة مع توقيتِ ارتفاع أشعة الشّمس، واستغلالِها لتشغيل الكهرباء.

تحرّكتُ في شارع السّوق، وكنتُ أقرأُ أوجاعَ المارّة والواقِفين حتّى شخصت أبصارُنا جميعًا نحو السّماء التي جاءت بالخبر المشؤوم، أسرابُ مناشيرَ ورقيّة تُحلّقُ فوقَ أنظارِنا ونركضُ نحو تفرّقها سُقوطًا لنلتقطَها، ونقرأ أنّ العدوَّ رسميًا قرَّر الاجتياح، وأمرَ النّاس في شرقِ رفح بالنّزوح...

تسارعَ الوقتُ وركبَ الذّعر مركباتِ النّزوح، وبدأَ النّاسُ من حولِنا الخروجَ من المدينةِ بحثًا عن مأوى جديد... استشعرتُ الخطرَ بعدما كنتُ أعتقدُ أنّ رفح هي المحطّة الأخيرة للنّزوح، تحرّكتُ نحو البيت وبدأ القلقُ والخوفُ يتسلّلان إلى أفكاري بالتّزامن مع المناشير وإعلان الخبر، بدأَ المُحتلُّ بالقصفِ على حدود المنطقة الشرقيّة، المنطقة المُخصّصة للتّوغل، والتي أعيشُ فيها مع صديقي الذي احتضنني مع أُسرتي وعائِلتي في بيتِه...

لن أهتمّ بموعدي الذي حجزتُه عند طبيبِ الأسنان، توقّعًا منّي أنّه لن يستقبلَ أحدًا في ظلّ هذا الخبر المُفاجئ...

عدتُ إلى البيتِ وقد سبقني الخبرُ إليهم... سألتُ صاحبَ البيتِ الذي آوانا طوالَ فترةِ الحرب: إلى أين سنذهب؟ ضَحكَ وقال: لن أخرجَ من بيتي، مهما حدث... لم أُراجعه ولم أنصحه، دخلتُ أرتّبُ أغراضِي التي زادت مع أغراضِ صديقي التي منحنَي إيّاها، بعدَما تركتُ بيتي في الشّمال، ونزحتُ بالقليل...

تكلّمتُ مع زوجتي بهدوء، أنّنا يجبُ أن نرحلَ ولا مكانَ له جُدران قد يُؤوينا الآن بعد أن دمَّرَ المُحتلُّ الكثيرَ من المَنازل في شتّى المناطق وشتّت الكثير من المعارف والأصحاب...

اتّصلتُ بصديقٍ لي في دير البلح لديه أرضٌ خاصّة يعتنِي بها ويزرعُها، وكنتُ أنا والأصدقاء نلتقي فيها قبل الحرب في غُرفةٍ النّخيل التي بناها وأسماها بيتَ الشّعراء... التقفَ مُكالمتي مُرحّبًا بي...

ولكنّي تريّثتُ قليلًا بقرارِ الذّهاب إلى دير البلح، وغيّرتُ خُطّة نُزوحي إلى الغرب، حيثُ أهلي هُناك يقطُنون في خِيم، وتشاورتُ مع زَوجتي أن نبقى هناك حتّى تتّضحَ الأُمور بسببِ تضاربِ الأخبار، تارةً هي عمليّة محدودة، وتارةً هو اجتياحٌ كاملٌ للمدينة، وتارة هي مناورة سياسية للتوصل إلى هدنة...

جهّزتُ أغراضي مع أُسرتي وكنتُ أحاولُ اختيارَ الأهمّ فالأهم؛ اختصارًا للوقتِ الذي شاركني فيه سقوطُ القنابلِ مِن حولنا، والتي غيّرت رأيَ صديقي وحثّته على جمعِ أغراضِه هو أيضًا وتركه لكل الصور التي كان يتفقدها في عقله وكيف بنى هذا البيت حجرًا فوق حجر... قام باتصالاته بحثًا عن مكانٍ آخر ينزحُ إليه لأوّل مرّة بعد ثمانية أشهرٍ من عُمر الحرب.

بيتُه الذي جمعنا لا بديلَ عنه إلّا في خيمةٍ وسطَ الدّمار والرّكام، وقد فرّقنا القصفُ لنذهبَ في اتّجاهين مُختلفين.

لقد سمحَ لي أخذَ كلّ ما يلزمُني من فراش وأثاثٍ وأدوات، بقيَ كريمًا حتّى آخرِ لحظةٍ معي، حاولتُ جاهدًا الحصولَ على أي وسيلة نقل، وكان المُتاح سيّارة صغيرة، اضطررتُ بسببها إلى التّخلي عن بعض الأغراض خاصّة الملابس الشّتوية ونحنُ على مطلع صيف... على الرّغم من كلّ الأحداثِ ما زال داخلُنا إيمانًا بأنّ الحربَ ستنتهي يومًا، فقد لا أحتاج إلى هذه الملابس لسترنا من استمرار الحرب.

بعد انتصاف الشمس تحرّكتُ إلى غرب رفح، والطريق التي تحتاج إلى ربع ساعة للوصول إحتاجتْ إلى ساعتين بسبب تزاحم سيارات النقل وامتلاء الطرقات بنزوح الأقدام التي لم تجد وسيلة للنقل، وحين وصلتُ لم تكُن الخيامِ التي يشترك فيها أبي وأقارب زوجته كافيةً لحملِنا جميعًا...

ازدادتْ وتيرة القصف خاصة حول معبر رفح البري، واتضحتْ تصريحات المحتل عبر الإذاعة أن الهجوم يستهدف رفح بأكملها...

طمأنتُ أولادي وزوجتي أنّنا سنكون بخير، لكنّي أخبرتُ والِدي أنّنا في خطر، وأنّ رفح ستُنهشُ جدرانُ بيوتِها وتُغتصبُ حاراتُها، ويجبُ أن نرحلَ جميعًا قبل أن تكتظّ الطّرقاتُ بالسّيارات والشّاحنات، وقبل أن يصعُبَ علينا الحصولُ على عربةٍ تُوصلنا الى برّ النّزوح التّالي...

■■■

لم يعد مُصطلحُ (برّ الأمان) يليقُ بظرفِ الحرب في غزّة، فالمُحتلُّ ينهكُ أرواحَنا بالتّنقل، ولا يترك مكانًا آمنًا عن القصف.

وافقني على ذلك، فتحرّكتُ سريعًا إلى دير البلح، ولكنّي وصلتُ مُتأخرًا جدًا؛ لأنّني مشيتُ مسافاتٍ طويلة، واستخدمتُ عربةَ الحِمار للوصول...

طوال الطريق وأنا أتصل بصديقي لكن الإرسال لا يمسك الاتصال، وحين وصلتُ إلى أرضه كان عازمًا على الرحيل فوجئ بي وأخذني بالأحضان، لم يكُن حضنَ لقاء... كان احتضانَ إيواءٍ... قطعةُ الأرضِ الصّغيرة المزروعة بأحواضِ الخُضارِ المُختلفة وأشجار الزّيتون المُفرّقة، وقبلَ أن أسألَه كيفَ سنبني الخيامَ على أجساد النّبات وأرواحها، طمأنني أنّه أعدّ خُطةً لنعيشَ معًا من دون أن يتأذّى أحد ...

ساعدتُه في حملِ أشتالِ الخُضارِ ونقلها إلى أطرافِ الأرضِ، رسمنا هندسةَ الخيام آخذين بالاعتبارِ مكان وجودِ شجرات وشجيرات الزّيتونِ، الذي كان همُّنا الأكبرُ كيفَ نحافظُ عليها من دون أن تبلعَ الخيامُ شمسَهم...

كانَ الغروبُ بمثابةِ جرسِ الإنذار، علامةَ العودة إلى أماكن الإيواء، اتّفقنا على كلّ شيء، وافترقنا في انتظارِ عودتي غدًا بأسرتي وعائِلتي ...

اتصلتُ بوالدي وطلبتُ منه أن يُحضّر الأغراض ويربط الحقائب حتى نستيقظ باكرًا ونشد الترحال...

حين وصلتُ إلى شارع البحر كانت السيّارت تسير باتجاه واحد من رفح إلى دير البلح، تحمل المتاع والأشخاص إيابًا إليها، أمّا ذهابا إلى رفح فكان المشي هو نصيبي الأكبر، لا أعرف كيف كنت قبل الحرب أسير بمتعة البحر، أشتمّ عليل أمواجه ونسيمها، واليوم وبعدما قطعت مسافات كبيرة حتى إنّي لم أُلقِ نظري على البحر...

كنتُ أقرأُ أوجاعَ المارة والواقفين حتى شخصَت أبصارنا جميعًا نحو السماء التي جاءت بالخبر المشؤوم

كان بالي منشغلاً تمامًا كأن هذه الأمواج على الطرقات خرجت من بحر غزة كي تُحدّثنا عن أحوالنا...

فكرتُ كثيرًا كيف لأمي المريضة بمرض مزمن أن تتعايش في الخيام؟! ولا يناسب مرضها عدم توفر الماء وخدمات الحمام... كيف بعدما أنقذنا صديقي في رفح واحتوانا يؤول به المطاف في خيمة لا تقي من البرد والحر؟!

بدأتُ أُسلسل في رأسي ما نسيت من أغراض في بيت صديقي في رفح، خزّان الماء، فرشات، أدوات المطبخ، تركت البشكير والشامبو والصابون... ابتسمتُ مستنكرًا ذكرها في رأسي وقد تركت هناك في معسكر جباليا شقتي التي دمرها المحتل بما فيها من أثاث وكتب وذكريات...

وصلتُ إلى خانيونس وامتلأ قلبي بالرعب لمشهد الدمار الذي كانتْ تعكسه أضواء السيارات وكنتُ أراهُ مدينة أشباح... لم أحتمل هذا المشهد الذي لا يعطيني أي دلالات عن أسماء الأماكن التي أمرُّ بها...

جلستُ مُحطّمًا من طول الطريق يائسًا، بائسًا، مرهقًا من ثقل الأفكار...

أنقذتني عربةٌ كانت تحملُ راكبين في الأمام وأربعة ركاب في الخلف وثلاثة ركاب في حقيبة السيارّة... وقف بجانبي وسأل: ذاهبٌ إلى رفح؟

انتفضتُ بجسدي نحوه وتحركت حول السيّارة أبحث عن متّسع...

ولكن أين أجلس؟

ضحك أحد الركاب وقال: اجلسْ بجانب السائق.

هذه السيارة استطاعتْ حمل ضعف حمولتها، ولكني شعرت أننا في هذه الحرب نحمل أضعاف أضعاف ما يحتمله البشر.

الساعة الآن إلا منتصف الليل... وصلتُ إلى الخيام وجلستُ مع صوت المدافع والطائرات وما زال الجميع يُرتّب الأغراض استعدادًا لفكّ الخيام...

تكلم والدي مع أحد أقاربي ليؤمّن لنا شاحنة للنقل وقد حصلنا على ذلك بأعجوبةٍ، حين قبلنا بالتحرك فجراً...

اضطررنا إلى وصل النهار بالليل فلا يمكن احتمال هذه القنابل التي تتناثر سقوطاً ولا يمكن النوم تحت قصف الطائرات...

ألحّت زوجتي عليّ بأن أتناول بعض الطعام فقبلت فقط بتناول قطعة خبز محشوة بالحلاوة كي أمدّ جسدي بالطاقة، وانتهينا من ربط أمتعتنا قبل الفجر...

جلسنا حول الأبناء ينامون على الأغراض، ومددنا أجسادنا للعراء ننتظر وصول سيارة الشحن ورفع متاعنا للنزوح الرابع مع شروق مجهول...

16 أيار/ مايو 2024

على أبو ياسين كاتب

مراوغة الحياة والموت

كيف انقلبت الدنيا رأساً على عقب، وعقباً على رأس في لحظة، بعد تاريخ 2023/10/7، كأن القيامة قد قامت وما من أحدٍ إلى الآن قد استوعب ما يحدث وما حدث أو ما سيحدث، وأصبح الموت ليس فوق رؤسنا فحسب، ولكن يحيط بنا من كل جانب، أين المفر؟!. كيف المفر والزنانة فوق رأسك تصبّ أزيزها في أُذنيك صباً. صوتها يتغلغل في كلّ كيانك يدفعك إلى الجنون مثل جهاز تحت الأسنان لدى طبيب الأسنان بصوته الحادّ القاتل.

تخيل أن تظلّ تسمعه أياماً وشهوراً متواصلة لا تنتهي مع فارق أن صوت الزنانة أعلى وأعلم، فالزنانة تستطيع تصويرك عارياً أو كاسياً، صحواً أو نائماً وأنت في الشارع أو أنت مستلقٍ على فراش غرفتك، وهي إن شاءت قتلتك هكذا من دون أن يرف لها جناح، فلديها صواريخها الخاصة.

يوم الجمعة 13 تشرين الأول/ أكتوبر 2024، نزوحنا نحن ومئات الآلاف إلى الجنوب، لأن الشمال أصبح منطقة قتال خطرة، لذلك ذهبت أنا والعائلة الى منطقة دير البلح، لا أعلم لماذا. وقتها، وأنا أستقل السيارة، بصحبة العائلة خطَر لي تقسيم القارة الكورية إلى كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية. لماذا هناك شمال وجنوب. الشمال والجنوب حكاية لا تنتهي.. اعتقدنا أن نزوحنا سيستمر لأيام قليلة فقط، ولكن ها نحن ندخل في الشهر السابع، وما زلنا نحلم بالعودة إلى الشمال في كل يوم وساعة ولحظة، لأول مرة أدرك المعنى الحقيقي لوجع والدي حينما كان يحدثني عن البلاد، وحنينه الدائم إلى العودة. والذي دفعته النكبة خارج أتون مدينته الجميلة المجدل وغدا لاجئاً حتى مات.

■■■

البيت ليس جدراناً وأرضاً فقط. إنه جبال من الذكريات وسهول من الحنين وبحر من ذكريات الطفولة وعنفوان الشباب. البيت هو الوطن الصغير الذي يتغلغل في قلبك ووجدانك، وتظلّ تغرق في تفاصيله بهدوء وصمت من دون أن تدري. ليس هذا بيت القصيد على أهميته ولكن في الحقيقة، أن تنجو من الموت أكثر من مرة، أن تراوغه كلاعب كرة قدم ماهر مراراً وتكراراً، وتستطيع النجاة فهذا شيء رائع وجميل وفيه كثير من الحظ. أما أن تموت من دون إنذار، هكذا على غفلة يدخل بك هدف يقطعك إلى أجزاء أو يبقيك تحت الركام تتحلل ببطء، او تتبخر مثل العديدين الذين تبخروا، ولم يجد أحباؤهم من بقاياهم شيئاً، لا شيء على الإطلاق. فقط بمجرد أن تبخروا في الوقت والزمان والتاريخ والجغرافيا والفيزياء الخطأ، فهنا حقيقة مختلفة وواقع أكثر مرارة وألم لا يحتمل.

في الحقيقة، خلال مرات عديدة، شعرتُ بالتعب من غدر هذه الدنيا، أكثر من مرّة تمنيتُ الموت، ولكن حينما تشعر أن الموت يقتحم حياتك عنوة ويهدد وجودك ليفرض عليك سلطانه، أنت والعائلة -العائلة التي أفنيت عمرك كلّه تضحي من أجلها- فهذا شيء آخر لا أحد يستطيع تحمله ولا يمكن لك أن تتقبله بسهولة.. كلا يجب أن أعيش وأتحدى نداء الموت وأظلّ حياً. قلت لنفسي: ليس لي من خيار آخر سوى الدفاع عن حياتي وحماية أسرتي حتي آخر لحظة من عمري. ولكن كيف ننجو من هذا الكم من حمم جهنم التي تلقى علينا من السماء؟ لو كان الأمر بهذه السهولة أو لو كان في استطاعة الناس أن تنجوا لما مات وأصيب مئات الآلاف من البشر.

كلما ذهبتُ إلى السوق في دير البلح صادفت أحد الأصدقاء من المخيم الذي أعرف كلّ ساكنيه، دوماً أُبادره السؤال كي يطمئنني عن أحوال عائلته والجيران، وعن أهل المخيم، فيبدأ فوراً بسرد أسماء الذين استشهدوا، وأولئك الذين فُقِدوا وأُصيبوا.. تقريباً؛ لي ذكريات مع معظم أهالي المخيم، ولذلك فور ذكره للأسماء

رسم للفنان الفلسطيني عبد الرؤوف العجوري

تبدأ صورهم تتقافز أمام عيوني مبتسمين كعادتهم، أسمع أصواتهم مرحبين بي. آهٍ. يا اصدقائي الأعزاء، غادرتم أماكنكم بسرعة. كيف سيعود المخيم بدونكم والحزن قد استوطن في كل ركن وزاوية وزقاق في شوارع المخيم. تبدأ دموعي بالانهمار رغم إرادتي.. من قال إن الدموع تجف!! كلا الدموع لا تجفّ أبداً.. العواطف تجفّ أما الدموع فلا تجف، إذا كان هناك عاطفة تحرّك الوجدان فسوف تظلّ الدموع تنهمر كحليب الأمهات. تظلّ الأم ترضع طفلها حتى لو صار عمره عشر سنين ما دامت تملك العاطفة والحب يظل ينمو بحضنها. الفرق بين حليب الأم والدموع غير أن حليب الأم يساعد على النمو ويجعل الطفل يكبر. أما الدموع فسيلانها يجعل الحزن يضمر ويتوارى، العاطفة مصدر الدمع ومنبعه، لذلك تجد بعض الناس يبكي عزيزاً العمر بأكمله لأن حزنه كبير وعاطفته لم تنته، فتظل دموعه تنزل على خديه كلما أتى شخص ما على ذكره او تذكره نتيجة موقف ما. منذ سبعة أشهر ودموعي لم تجف.

■■■

البيت هو الوطن الصغير الذي يتغلغل في قلبك ووجدانك، وتظلّ تغرق في تفاصيله بهدوء وصمت

كنت أعتقد أن كل شيء يبدأ صغيراً ويكبر إلا الحزن يبدأ كبيراً ويصغر، ولكن اكتشفتُ خلال هذه الحرب ومع استمرارها لشهور، وتعاظم المآسي التي نراها، أن الحزن قاتل وكم من أم وأب وأخ مات حزناً وكمداً على من رحلوا. الحزن يكبر كما الفرح. ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعدّدت الأسباب والموت واحد.

لم أستعد أبداً للموت، كنت دوماً أستعد للحياة وخاصة أنني بعد شهور قليلة سوف أتمّ الستين، وأستريح لأول مرة في حياتي التي قضيتها ممتطياً ظهر الخيل، أحمل سيفي وأحارب أهوال الحياة، لم أسترح يوماً. كانت لدي خطط مع زوجتي أن نتوقف ما بين القاهرة والإسكندرية والأقصر وأسوان وشرم الشيخ ومدان ومعالم سياحية مختلفة في مصر. كنا قبل الحرب في كلّ ليلة نتخيّل الرحلة، وعدد الأيام التي سنمضيها في كل مدينة، وكيف سيكون سير الرحلة، قلنا إننا سوف نحمل فقط شنطة كتف صغيرة لكل منا حتي نتنقل بسهولة. وكم حذرنا أبناءنا من عدم مطالبتنا بشراء أشياء ونحن في مصر حتى لا نجد أنفسنا نتحرك لتلبية طلباتهم. دعوا هذا الوقت المستقطع من الحياة لنا، ومرة واحدة حتى نقول إننا عشنا وسرنا يومين من هذا العمر الشقي.

لستُ مستعداً مطلقاً للموت الآن، فما زال لدي الكثير من الأحلام والأوقات السعيدة التي حلمت أن أقضيها بصحبة عائلتي وأصدقائي، اذهب بعيداً أيها الموت، فأنا مصرٌّ على مواصلة درب الحياة. وكما قال محمود درويش: على هذه الأرض ما يستحق الحياة. وأنا أضيف: تحت هذه السماء من يريد النجاة بلحظة حب، ووطن حرّ، وكسرة خبز، وشربة ماء. يا شبح الموت غادر سماءنا.. ألم تشبع بعد من قطف كل تلك الأرواح البريئة؟!

هل من أحد يخبرنا كم هو ثمن حريتنا حتى ندفعه وننتهي؟ ألا يكفي كل هذا القهر والألم الممتد منذ 76 عاماً حتى الآن. أم قدرنا أن نبقي من دون شعوب الأرض نتجرع القهر مراراً وتكراراً ونحلم بصبح ليله لا ينتهي.

مخيم دير البلح

5 أيار/ مايو 2024.